المضمون في الفكر النقدي

تأسيساً على ما طُرحَ في اسبوع المدى الثقافي ٢٠٠٧

د. محمد رضا مبارك

إن انعقاد ملتقى فكري او ادبي او علمي، يعني تقصي القضايا الجوهرية التي أُلقيت ومتابعتها بعد إنقضاء ذلك الملتقى، كي لا يكون لقاءً عابراً، او مجرد مصادفة للتعارف او التذكر.. فالبناء على ما طُرح واغناؤه، هو الذي يعطي لهذه الملتقيات اهمية وحيوية وقدرة على الاضافة النوعية فبتراكمها يمكن ان تحدد ملامح عصر جديد من عصور النقد او شوط جديد من اشواط الثقافة. ولابد للدارسين الجادين من النقاد والادباء ان يتبنوا ما هو أصيل ومتناغم مع روح العصر ومتطلباته.

لقد قدم الناقد الدكتور مالك المطلبي، ورقة نقدية بعنوان "تشريح المضمون" في حلقة دراسية عن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري.. وكان العنوان مثيراً، معرفياً ومنهجياً، وهو عودة لمفاهيم النقد التي شاعت في القرن التاسع عشر، بل حتى قبل ذلك التاريخ.

ولعل مالك المطلبي بدأبه النقدي ومتابعته وحرصه على التواصل الثقافي مع المنجز الانساني الاشمل، قد التقط ملمحاً مهماً من ملامح الحركة النقدية العالمية، او لنقل الجهد النقدي الحديث، الذي لا يكف عن المساءلة والمتابعة والمراجعة، ومحاولة الاستفادة من المفاهيم التي اعتقد البعض او ظن، انها قد اضمحلت او في الاقل ابتعدت عن الواقع النقدي والثقافي المعاصر لذا فأن تشريح المضمون لابد ان يلتقي مع الاتجاهات النقدية السابقة، التي قاربت بين مصطلحات العلم والادب، في محاولة لأسباغ الروح العلمية التي انبثقت في اوربا على الاشتغال الادبي.

لقد اثار الناقد المطلبي جملة من التساؤلات، واطلق مفاهيم، تحتاج الى التأمل في تمحيص مغزاها، لان الحديث عن المضمون في الادب، لابد ان يوجد تساؤلاً آخر هو هل للنصوص الشعرية خاصة مضامين؟ يقع الاشكال في التساؤل المحض، الذي لابد ان يؤدي الى تساؤلات أُخر.. تتعلق بمجمل الانجاز المعرفي الذي عرفته الدراسات النقدية منذ الشكلانيين الروس الى هذا اليوم.

غير ان المضمون هو نفسه المعنى، وان اجتهد البعض في التفريق بينهما، وفي النقد العربي القديم، لابد من ارتباط بين اللفظين او المفهومين، فلا يمكن تصور احدها دون الاخر، ولعل الادب العربي قد انشغل كثيراً بالمعنى، عن طريق الصدق والكذب، وهي موضوعة شائكة قد تبين فارقاً ربما كان جوهرياً بين الشعر العربي والشعر الغربي، في المجالات التي تصح فيها الموازنة بينهما. غير اننا نعيش اليوم في عالم جديد، تتقارب فيه المفاهيم والمناهج والثقافات، فالتوزيع الثقافي الجديد، قد يلغي انواعا ادبية، لديها الثبات والديمومة منذ قرون، حتى ان الروائي المعروف (كونديرا) يتنبأ بموت سريع للرواية في اوروبا.. وان زمانها بدأ يأفل، وبموازاة ذلك، تغير الذوق الادبي، وحساسية الانسان تجاه نفسه وتجاه الاشياء، واصبح التوجه قوياً نحو انماط جديدة من الانتاج الادبي، او من تطور داخل الجنس الادبي الواحد، وقد يتسرب الشك الى جدوى الادب، فليس مهماً ان تصنع الكلمات، بل المهم ان تصنع الاشياء وبين صنع الكلمات والاشياء، يقف سؤال واسع الابعاد.

إن مقاربتنا للمضمون، تبنى على محورين اساسيين:

الاول: علاقة الادب بالذات، والثاني علاقته بتغيير العالم.. والعلاقة الاولى، اشبعت دراسة، لكن تغير العالم، يشكل تساؤلاً كبيراً في اطار الاشتغال الفلسفي عن الادب، فالعالم يفسر بطرق مختلفة، منها التغير الديني يفسر العالم تفسيراً غيبياً، والتغير التجريبي الذي يفسر الحياة تفسيراً قائماً على معطيات التجربة والعلم ثم التفسير التجريدي، الذي يفسر العالم انطلاقاً من التجريد أي التفكير المطلق وهو يتلقى مع التفسير العلمي في بعض مواضعه، واخيراً التفسير الوجداني او الادبي، وهو ما يعنينا هنا، لأن هذا التفسير يقوم على الذات المفسرة وما يعتورها من انفعالات ومشاعر، لابد ان تكون نسبية وشخصية.

ولكن ما المقصود بالتفسير؟ وصل الادب والفن، هما اللذان يفسران العالم؟ وهل الادباء مطالبون بتفسير العام الذي يعيشون؟.

مصطلح التفسير يدخل في اطار من السياقات العملية والنظرية في العلوم كافة، فهو يمكن ان يكون مجالاً لعلوم الفلسفة والعلم التجريبي، وهو في الادب، يبدو قريبا من المضمون، لكن الادب لا يفسر العالم، فالحياة من حولنا لا تحتاج الى تفسير، وهي ليست بحاجة الى الادب كي يفسر تناقضاتها..

وبسبب الذاتية في الفن والادب، واحالة النص على جملة من المواضعات النفسية، فان الاديب معني بتجربته الخاصة، التي قد تلاقي الفلسفة في نظرتها العميقة وفي محاولتها ايجاد نوع من انواع الانسجام مع العالم، لكن هذا العالم بالنسبة للاديب مفسر ولولا ذلك، لما ذهب بعيداً في استعمال الوان التعبير الفني- لاظهار موقفه من الحياة او الكون او العالم، فاذا كان الموقف يقتضي ضرورة فهماً للعالم، فان مواقف الادباء في حقيقتها موقف من العالم والحياة، بعد ان تمكنوا من ايجاد تفسير ما لها، انها طريقة في التعبير عن تناقضات العالم وما يحيط بنا من اشكالات هي اذا طريقة خاصة في التعبير فالادب مسكون بروح المأساة والشرط الأرضي شرط مأساوي دون شك، والمأساة تسكن الكلمات مثلما تسكن الواقع بل هي قد تتقدمه، أي تتقدم هذا الواقع، وتنبئ به، والاديب ينبه ما يحصل في هذا العالم، انه لا يضع حلولاً للاشياء، لكنه ينبه الى خطورة ما يعتمل في هذا العالم، اذا الحياة ليست مجهولة في عالم الادب، هو العالم المعلوم الذي يمكن ايجاده حتى وان لم يوجد، فوسائل الادب هيأت بناء عوالم جديدة غير تلك التي نرفضها او نرفض التعامل معها.

وبناء العوالم الجديدة لا يكون الا من خلال التجارب الشخصية الذاتية، ومن خلال البناء المبتكر للكلمات ثم من خلال التخييل الخيال هو العنصر الحاسم في التجربة الادبية، وهو يصنع ما يشاء دون رقيب، العقل حاضر، ولكنه المتواري المتخفي، وراء الوان من الغيوم والسحب السوداء، انه العقل الشفيف الذي يمنع الكلمات من ان تنحرف عن مستوى معين او مقبول.. وعلى هذا الاساس فان المضمون الذي نبحث عنه لا وجود له هو يوجد في الفلسفة في شتى انواع العلوم ويوجد في الكتابة النثرية، ومعنى عدم وجوده عدم تحديده فهو مضمون مخيل ومعنى مخيل، وان لم تُستغل كل امكانات التخييل في النص، والخيال فردي، شخصي غير مفهوم ويصعب تفسيره وتحديده، وهو قد يضيف الى اجزاء الصورة او ينقص منها او يزيد، او يغير فيها ما يشاء فالتخيل ينشأ "عن التصور واذا كان التصور لا يتصرف بالمدركات الحسية بالزيادة او النقصان، فانه يبدع من الاجزاء المألوفة تركيباً جديداً غير مألوف"

والخيال من اكثر مفاهيم الادب علاقة بالمعنى، وبالمضمون وقد اهمل النقد العربي القديم في بعض عصوره الخيال لعناية النقد بعنصر الصدق في الادب، واضر ذلك ضرراً شديداً بنظرية النقد عن العرب، اما الفلاسفة كالفارابي وابن سينا، فقد وضعوا الاقوال المخيلة في مرتبة دنيا بعد الاقوال البرهانية والخطابية..

ومن هنا لا نجد للعرب عناية بالخيال، على الرغم من العناية التي منحها اياه حازم القرطاجني في منهاجه وهو يعتمد على قول ابن سينا في حد الشعر.

ولعل قول ابن طباطبا خير شاهد على الصناعة الادبية والشعرية حين قال "فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، واعد له ما يلبسه اياه من الالفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه انتبه واعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني ثم يتأمل ما قد اداه طبعه وانتجته فكرته، فيستعصى انتقاءه، وبرغم ما وما وهن منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة".

والخيال تصنعه الكلمات او التركيب، والمضمون هنا هو مجال لغوي بحت، ففي الادب تتجاوب المخيلة مع طبيعة اللغة وتنصاع اللغة للمخيلة، لكن المضمون مطلق واللغة محددة وبين الاطلاق والتحديد، يمكن تصور مشكلة المضمون، او مشكلة المعنى.

ومن جهة اخرى فان المضمون متضمن في الخيال دون شك، وعلى هذا الاساس، فان مقاربة الخيال من اشد ارهاصات الفكر المعاصر واهمها، والخيال لا يحتاج الى تفسير العالم، فهو يوجد عالمه الخاص.

ان الادب عامة والشعر خاصة، هو نوع من اليوتوبيا انه خلق عوالم فاضلة في مقابل عالم الواقع، هو الجمال المطلق في مواجهة الزيف المطلق، وبعض الفلاسفة يئسوا من الاصلاح الداخلي فالعالم لا يمكن اصلاحه ولابد من بناء مدن جديدة، مدن فاضلة والهدم والبناء هو اساس الفكر الفلسفي منذ ارسطو والادب يقوم على المبدأ نفسه، فالعالم الخيالي يهدم العالم الواقعي..

واذا كانت العلوم المختلفة تُعنى بالمضمون، فان الادب لا يُعنى بالمضامين" لان المضامين مخيلة، والتاويل الذي يدرسها هو تأويل خاص، احتمالي" يختلف تماماً عن تأويل النص الديني مثلاً.. وان كان لا يخلو من الاحتمال ايضاً..

وبين ماضٍ انقطعت عنا بنياته المعرفية، وحاضر يضغط برؤيته الفكرية والفلسفية يبرز السؤال، هل دراسة المضامين في الشعر مثلاً ما زالت مجدية؟؟ ام اننا نحتاج الى توصيف جديد للمضمون، يستفيد من مجمل الاراء السابقة.

واذا كان لاستعادة المفاهيم من جدوى، فان جدواها تكمن في محاولة امعان النظر في صناعة الكلام الشعري، بعدما ابتعدت الموسيقى الخارجة عن الشعر او كادت"

وعاد الشعر يقوم بموسيقى داخلية، هي عبارة عن تناغم نفسي داخلي لا علاقة له بجرس الالفاظ، كما ان التماهي بين الاجناس الادبية، وضع منطلقاً لرؤية جديدة عن المضمون..

تخطيط للجواهري بريشة جواد سليم

"ستارة" ميلان كونديرا.. في الصحافة النقدية الغربية

ترجمة : عادل العامل

وُصف ميلان كونديرا Milan Kundera، كما يقول جيمس تشارلس في مقاله هذا، بكونه المؤلف التشيكي الأكبر منذ فرانز كافكا، وقد وحّد كتابه الأخير النقّاد في مختلف أنحاء العالم في الثناء الغامر على قدرته على كتابة نثر جميل. فالكتاب يرسم خارطة لرحلة كونديرا الشخصية عبر التاريخ وتطور الرواية كشكل من أشكال الفن.

وهناك فقط سؤال واحد : أين جميع المؤلفات من النساء هنا؟

وكيغ رين من صحيفة (الغارديان) نموذجي في إعجابه بـ " الستارة ".The Curtain" فهو يقول إنها " مناظرة مستمرة لامعة ومعقدة على نحو جميل. وأطروحتها الرئيسة هي الفكرة الحقيقية كلياً القائلة بأن الرواية تُظهر لنا نثر الحياة، الرؤية المحررة unedited، بغياب أحداثها الكبرى، الإحساس بهزيمة الحياة غير الدراماتيكية المحتمة. ومفهوم كونديرا عن هذا هو الستارة التي تسحبها الرواية بحيث يمكننا أن نرى ماذا هناك.

ويوافق النقاد على أن قدرة كونديرا على الكتابة هي التي تجتذب القارئ إليها. فجوناثان ديربيشاير في (الفايننشال تايمس) يرى أن أسلوب كونديرا " مغرٍ، وبارع، وشخصي، فوق كل شيء : فجولاته في التاريخ الأدبي طريقة للتحدث عن نفسه وفنه. "

وستكون معذوراً إن فكّرتَ بأن "الستارة " كانت على درجة من المستوى الثقافي أرفع من أن تتّسم بالامتاع، لكنك ستكون مخطئاً، وفقاً لكيفين جاكسون في صحيفة (السّندي تايمس): " فلحسن الحظ، قد تكون مقالة كونديرا أي شيء إلا أن تكون أكاديمية، وأن خصوصيتها العنيدة هي التي تساعد في جعلها قابلة للقراءة إضافةً إلى الإغضاب. وسرعان ما يصبح واضحاً أن كونديرا لا يكتب عن مثال إفلاطوني كامل من الأدب القصصي النثري، وإنما عن الروائيين الذين يُعجب بهم أكثر من غيرهم، وهم الذين ساعدوه ليصبح مؤلف The Unbearable Lightness of Being وما يشبه. "

وتقر كارلين رومانو بمقاصد كونديرا النبيلة، لكنها تبتهج لافتتانه الواضح بموضوع حديثه : " إن الأسماء يمكن أن تجعل رأسك يصاب بالدوار إذا لم تنجز متطلبات " العالم مضاءً " World Lit، ولكن أولئك الذين لديهم ميل لمشاهد الأدب الكبرى سيتمتعون بلوحات كونديرا ذات الحكمة الغامرة والتقارير التنقيطية. أما أولئك الذين يرون الرواية، منقوصة، كما هي حال الحياة نفسها، فيمكن أن يجدوا أنفسهم أقل افتتاناً.

وبينما يرى البعض " الستارة " قصة حب، يجدها أخرون عملاً مسلياً ومثيراً، وكما جاء على موقع Cruellest Month، " إن عمل الرواية الحقيقي ليس محدداً بمواصفات أية لغة: ما يجعل الرواية تهم هو قدرتها على الكشف عن جانب ما غير معروف سابقاً من جوانب وجودنا. وفي "الستارة "، يصف كونديرا كيف تفعل أفضل الروايات ذلك تماماً".

ويقع بيتر كونراد، من الأوبزيرفر، متيماً في حب " الستارة " ويستمتع بوجه خاص بخفة كتابة كونديرا. "أحياناً يتخلى عن الإيضاح وبدلاً من هذا يصرح ببساطة، معبراً عن امتنان وعجب جمالي يستهجنهما أولئك الذين يمارسون الأدب في الجامعات. وهو يُدخل ، ذاكراً اللحن الرباعي الوتري لسميتانا، كلمة " ممتاز ! " الاعتراضية.

وفي غضون ذلك، نجد رسل بانك، الذي يكتب في (نيويورك تايمس)، ضنيناً في ثنائه : "إن قراءة الستارة كقضاء أمسية متقطعة طويلة على القهوة والسجائر في مقهى ممتع مصغياً إلى ميلان كونديرا يلقي خطبة في التاريخ، الأدب، الموسقى، السياسة، البلدان الكبيرة مقابل الصغيرة، الشرق مقابل الغرب، الغنائي مقابل الروائي، باريس مقابل براغ وهكذا ليلاً" وكان بانك الناقد الوحيد الذي يجد عيباً في "الستارة" : إذا ما كان لدي اختلاف مع وصف كونديرا لتاريخ الرواية فهو أن الكاتب لم يكن شاملاً بما فيه الكفاية. فهو لا يناقش روائية أنثى واحدة، حتى بصورة عابرة. وكأن ليس هناك من امرأة غربية حاولت على الإطلاق كتابة رواية جادة خلال ٤٠٠ سنة!

ميلان كونديرا

عن / Times Online

أدب النصيحة في العراق القديم يؤسس للأسرة العراقية القديمة

عبدالعزيز لازم

يقول "صاموبل نوح كرامر "صاحب كتاب "التاريخ يبدأ من سومر" إن الأدب السومري هو الأقدم في التاريخ. لقد احتفظت آلاف الألواح والتماثيل والأعمدة الحجرية والمزهريات وأحجار الطوب ومحاجر الأبواب ومستودعات المؤسسات بنصوص شعرية ونثرية رفيعة تحوي الكثير من المعلومات حول التاريخ والدين السومريين. لقد نقشت أكثر من ٥٠٠٠ لوح وكسره فخارية بالأعمال الأدبية والدينية شملت الأساطير والملاحم والحكايات والتراتيل والمراثي والأقوال المأثورة والأمثال والنصائح والمقالات. ان جميع الأعمال السومرية الأدبية والدينية قد كتبت بصيغة شعرية، باستثناء الأقوال المأثورة والأمثال وبعض المقالات. ويجدر القول ان معظم الألواح الأدبية ذات القيمة العالية في دراسة التطور الفكري السومري ترقى إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد بينما غالبية الأعمال المنقوشة كانت قد وضعت في قرون أقدم من ذلك، ونضيف ان الدراسة النظامية المثمرة لمحتويات هذه النصوص لم تبدأ إلا عند حلول أربعينيات القرن العشرين. فهل يعني هذا ان علينا انتظار المزيد من الكشوفات في هذا الميدان؟ فعلى سبيل المثال عثر على اسطوانة طينية صلدة ترجع إلى عام ٢٤٠٠ ق. م نقش عليها نصا يتكون من عشرين عمودا تروي أسطورة تخص الإله انليل وأخته ننحرساج وتضمنت أيضا أحداثا ساهمت فيها معبودات سومريات مثل انانا وأنكي ونينورتا. وقد حمل ذلك وغيره العلماء على ترجيح حقيقة إن السومريين قد باشروا تسجيل أعمالهم الأدبية منذ ٢٥٠٠ ق.م تقريبا.

يركز أدب النصيحة على مجموعة الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التي أنتجها الأدب انطلاقا من الحياة اليومية ومن ضرورات البناء الاجتماعي. وبغية ترسيخ الأسس الاجتماعية لبناء الحضارة الجديدة دأب المبدعون العراقيون الأوائل على توجيه جهدهم الإبداعي في مجال النصيحة نحو العناية بالعائلة باعتبارها الوحدة الأساسية لذلك البناء.ومما له دلاله عظمى إن تلك الحكم والأمثال لم تبق أسيرة التشتت والعشوائية كما هو حالها في أيامنا بل تأسست مدارس متخصصة وضعت في برامجها مهمة إعدادها وتنظيمها لغرض إدخالها في برامج التعليم المدرسي. فعلى سبيل المثال تكونت ألمدرسه السومرية " أي دبا " أو "بيوت الألواح" التي استقطبت رجال العلم والثقافة للقيام بمعاينة و ترتيب وإعداد تلك الأقوال ووضعها في متناول المدارس بعد تصنيفها على شكل مجاميع حسب اختصاصها. ولم يقتصر أمر هذا النوع من الإبداع على نشاط المبدعين السومريين بل إن الأقوام الأخرى التي شاركت في العيش في ربوع وادي الرافدين قد أعطت تكويناتها الادبيه في هذا المجال. لقد تابع الاكديون والبابليون والآشوريون السير على خطى السومريين وأضافوا مساهماتهم في اغناء هذا الأدب العريق. أما الحيثيون والحوريون والكنعانيون وكذا العيلاميون وغيرهم من الأقوام الأخرى فلم يتأخروا في نقل ما استطاعوا من أدب النصيحة العراقي إلى آدابهم بل قاموا بتقليدها بشكل مباشر وعلى نطاق واسع. ويجدر القول في هذا المجال إن العديد من الألواح الأدبية التي تضمنت الحكم والأقوال المأثورة جاءت بلغة مزدوجة. فمن المعروف إن اللغة السومرية قد استمرت لغة للثقافة جنبا إلى جنب مع اللغة الأكدية بفرعيها البابلية والآشورية حتى آخر الحقب التاريخية في المجتمع العراقي القديم. وهذا يؤكد متانة وحدة الثقافة العراقية في مختلف الحقب، فجميع ما تحقق من التطور في مختلف العهود كان قد تأسس اعتمادا على ما تحقق في العهود التي سبقت غيرها بما يخدم وحدة المجتمع ووحدة ثقافته ذات الألوان المتعددة والمتكاملة..

إن كل ذلك بطبيعة الحال قد انسحب على قضايا تطور العائلة العراقية باعتبارها أولا وحدة بناء أساسية يقوم عليها الهيكل الاجتماعي برمتة، وثانيا كانت هي بناء إنتاجيا ماديا وروحيا أيضا يقدم نوعا متقدما من القيم التي ترفد المجتمع بطاقات بشرية مبدعه تحفز وتعطي المزيد من ثمار العقل الحضاري. فالعائلة العراقية القديمة بعد اكتشاف الكتابة في الوادي وتدشين عصور التاريخ المكتوب، بل وحتى بعد دخول الإسلام في المجتمع العراقي في فترة لاحقة، لم تعد كما كانت فيما قبل التاريخ مجرد كيان أفرزتة ضرورات العيش. بل إنها أصبحت كيانا اجتماعيا تتعزز فية حقوق الإنسان وتطور كيانه النفسي الخلاق. وقد فعلت ذلك من خلال تطور طبيعة أهدافها في المجتمع، فقد قفزت إلى طور صياغة أهداف جديدة تقوم على تزويد أعضائها بالرفقة الجميلة والحماية والعلاقات الاجتماعية المنضبطة.

لنلاحظ إن مجموعة الأمثال والأقوال المأثورة والحكم القديمة الخاصة بالعائلة قد ركزت على ثلاثة محاور هي "الزواج والأطفال" و"العلاقات الأسرية" و"الموقف من العمل والإنتاج" ضمن قيم بناء الأسرة.

فيما يتعلق بالزواج والأطفال يصف واضع الحكمة السومري الشخص العازب بأنه متهرب من المسؤولية وانه عاجز عن تحملها فيقول:"إن الذي ليس له زوجة أو ولد لا تحتمل انفه القيد" ورغم إننا قد نفهم إن هذا النص يصور الزواج وكأنه قيد يغل رقبة المتزوج إلا أن النص الاكدي الذي جاء لاحقا كان اشد وضوحا في توجية النقد للعازب : إن الشخص الذي لا يعول زوجه، لا يعول ابنا، انه شخص لا يؤتمن، ذلك الذي لا يعول نفسه ". وتصف حكمة أخرى المرأة غير المتزوجة بأنها كالحقل غير المزروع كمل تشير حكمة آشورية جاءت لاحقا إلى إن تلك المرأة تشبة المنزل الذي ليس له صاحب: "إن المرأة من غير زوج كالحقل من غير زرع" أو"المنزل بدون صاحب، كالمرأة من غير زوج. "لقد استطاع الحكيم السومري الارتقاء بالفكرة إلى مستوى آخر من التطور فشدد على فكرة الاختيار الحر من الزوج لزوجته وأعطى الزوجة أيضا ذات الحق في الاختيار، كذلك لم يكتف بالقول المأثور بل لجأ إلى الأسطورة لشحن افكارة حول هذا الموضوع، فقد عثر على نص أسطورة شعرية جميلة في جنوب العراق حول سعي الإله ألأموري "مارتو " تصور مسعى ذلك الإله الشاب للزواج من المرأة التي تناسبه فيلجا إلى استشارة والدته فيخاطبها: "يا أماه خذي لي زوجه / وسأقدم لك هديتي". لكن والدتة تنصحه بالبحث عن زوجته حسب اختياره : " ابحث لنفسك عن زوجة طبقا لرغبتك " ثم تمضي الأسطورة في وصف مشوق لأحداث تنتهي بتمكن "مارتو" من اختيار ألزوجه التي تقتنع به هي أيضا حين يقوم بإعمال بطولية أمام اله حارس آخر كان في زيارة مع عائلته وابنته إلى مدينته حيث يقيموا له احتفالا ترحيبيا فخما، فتعجب به الابنة ويرفض هو كل جوائز الأموال والذهب التي خصها به الإله الزائر إعجابا باستعراضاته البطولية ويطلب يد ابنته بدلا من ذلك. إن فكرة حرية الاختيار في الزواج تتكرر كثيرا في الأدب السومري وكذا البابلي والآشوري، بل إن بعض الحكم والامثال تشير إلى وجود علاقة ما بين الزوجين قبل الزواج تنتهي بالزواج الشرعي يتودد فيها الفتى لفتاته قبل الزواج ويعدها بأنه سيحقق لها المنافع والرفاهية التي تحلم بها إن وافقت على الزواج منه :- "أيتها العذراء، لم يعطك أخوك الأفضلية / فلمن يجب أن تعطي الأفضلية؟" وطبعا هناك العديد من الأقوال على ألسنة الفتيات يطلقن رغبتهن في اختيار الفتيان المؤهلين كي يكونوا أزواجا لهن وفق شروطهن :- من المقتر؟ من الموسر؟ الذي أصون له فرجي. ويلاحظ أن هذا المثل يوضح رغبة الفتاة في الاختيار بين الرجل البخيل الشحيح والآخر الغني الذي يستطيع تقديم الرفاهية...في هذا الصدد لا نستطيع تجاوز قصيدة الغزل الجميلة التي تصور لقاء دموزي (تموز) وأنانا أو أنيني وهي (عشتار)(تعني سيدة السماء)، تروي فيها عشتار إن تموز قد مسكها من يدها وعانقها بينما كانت هي ترقص وتغني في جولتها حول السماء، لكنها حاولت التخلص منه بدعوى إنها لا تستطيع تبرير تأخرها لأمها، إلا انه دبر لها حيلة بان تدعي لأمها إنها كانت مع صديقتها، في نهاية القصيدة يذهب هو إلى الأم ويخطب عشتار منها وتوافق هي فيتم الزواج..

أما المهر فلم يكن إجباريا في العراق القديم، فقد يقدم الشاب أو والدة مبلغا من المال إلى والد العروس، إلا إن من الشائع أيضا إن المهر لا ضرورة له في تلك الحقب . كما إن هناك بعض الهدايا المالية تقدم إلى والد ألزوجة وهي تختلف من عائلة إلى أخرى ولا تحكمها قاعدة ثابتة.لكن المهم في نظر القائمين على الزواج هو المسؤوليات التي تترتب علية. يقول صاحب الحكمة الآشوري : -إن من تحب سوف تحمل نيره. وتوضح تلك النصيحة إن مسؤولية الزوج هي صيانة زوجتة والإنفاق عليها وان على الزوجة المحبة أن تتحمل مسؤولياتها أيضا.رغم ذلك كان هناك ما يسمى في زماننا بزواج المصالح، ففي زمن حمورابي مثلا حصل أن يقوم والد الشاب باختيار خطيبة ابنه ثم يحصل الاتفاق بين العائلتين ويتم الإعداد للخطبة حيث جرت العادة على إن تقدم عائلة العريس بعض قطع الأثاث إلى عائلة العروس مع بعض المال يقدم إلى والدها. ومما يستحق الذكر إن المرآة ضمن هذة الأجواء قد حظيت بالتكريم البارز من قبل إطراف عملية تكوين الأسرة العراقية القديمة وتضمنت العديد من الأمثال فحوى ذلك، يقول مثل سومري :- " المرآة مستقبل الرجل." بل إن أقوالا مأثورة أخرى كرست لتدليل المرآة وليس مجرد تكريمها فيقول مثل آخر :" إن الدقيق الفاخر يخصص للنساء والقصر". وقد بلغ التدليل شوطا مبالغا فيه في بعض الأحيان، فعلى لسان امرأة يقول المثل : "يكوم زوجي الحبوب من أجلي، / ويوزعها ابني من أجلي، / هل يمكن أن يزيل زوجي العزيز العظام من السمك من أجلي ". إن أدب النصيحة وهو يتناول جميع مناحي الحياة قد حفظ لنا نصوصا بليغة تتعلق بتقويم سلوك الأولاد وتصور الهموم التي تشغل بال الآباء من اجل مساعدة أبنائهم في إتباع السلوك القويم في الشارع أو في المدرسة بما يخدم مستقبلهم الشخصي ويخدم أهداف المجتمع العليا. ويلاحظ أن العراقي القديم كان شديد الاهتمام بالمدرسة وبتعليم ابناءه وحثهم باستمرار على السعي من اجل المعرفة المدرسية. ولاشك إن ذلك الاهتمام الشديد في هذا الجانب كان وراء الإنجازات الحضارية الكبرى التي حققها العراقيون عبر مراحل التاريخ، كما إن المدرسة العراقية قد أثبتت على مر العصور إنها الأكفأ في مجال إعداد العلماء وذوي الفكر المتقدم كما نلاحظ في أيامنا..يقول الأب لأبنه : " اذهب إلى المدرسة، وقف أمام معلمك، واسمع دروسك.../ أحضر إلى المنزل، ولا تتجول في الشوارع. / ... وعندما تمشي في الشارع لا تنظر في كل الاتجاهات." وفي مكان آخر : اذهب إلى المدرسة، إنها مفيدة لك. / ولدي ابحث عن الأجيال الأولى، واستعلم عنهم."

لقد حرص أدب النصيحة العراقي علي تأكيد أهمية العمل في حياة الإنسان وشدد على تمجيده واعتباره هوية حقيقية للإنسان وهذا بطبيعة الحال انعكاس لتفكير الإنسان العراقي القديم ونشاطه اليومي، يقول المثل: "إن من يكسب رزقه يقابل بالتقدير". وهناك أمثله آشورية تؤكد على أهمية بذل الجهد والتوجه للعمل وبعضها يقول: "عندما تعمل يصبح إلهك لك./ وعندما لا تعمل لا يصبح إلهك لك." وهناك حكمة ذات دلالة خاصة في تاريخ المنطقة اللاحق تقول:"جهز نفسك وألهك سيساعدك." ويلاحظ إن مضمون هذا القول شديد الشبة بحديث قاله النبي محمد (ص) حين استشاره احد المسلمين فيما إذا كان عليه ترك راحلته بعناية الله يرعاها دون ربطها أو تثبيتها في مكان محدد، فقال له النبي(ص) " اعقلها وتوكل على الله." أي أن الله سيساعدك بشرط أن تتجه بنفسك إلى العمل. وهي دعوة إلى العمل أولا ومن ثم طلب العون من الله كما هو واضح.

الواقع الطبقي في العراق القديم كان حاضرا دائما في الأدب وفي أذهان أصحاب النصيحة والحكمة. فالمبدع دائب البحث في حال الفقراء بشكل خاص ويستمد مادته من واقعه المعيشي ويبحث بشكل خاص في الأسباب التي أدت إلى ظهور التفاوت في مستوى المعيشة بين الناس. حول واقع العوز والحاجة يقول المثل :- "الرجل الفقير دائم البحث والفضول عما سيأكل." وبين الغني والفقير هناك الأشكال ألاجتماعي :- " تتجه عينا الفقير حيث يأتي خبزه." و : -" انه لا يستطيع النظر بازدراء للغني " ثم يصور المثل حال الفقير في المعادلة : - الفقير الذي يتسول الخبز يتنشق الازدراء ".

بعد هذا يبرز السؤال إلى أي مدى حافظ الأديب العراقي المعاصر على مضمون رسالة شقيقه القديم؟ ولكن هناك سؤال معبأ بالغيظ يطرحة المثقف العراقي في أيامنا، هل كان الشقيق القديم يعمل ورجلاه تحترقان؟! هل كانت أحلامه معروضة للتدمير؟!